قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

عزرائيل يقبض بيد صفراء

وصل الفائت

أرسلت حكومة الولايات المتحدة البكباشى ريد إلى جزيرة كوبا ليفحص سبب وباء الحمى الصفراء . وكانت الحرب الأسبانية انتهت فى كوبا . فأعلن البكباشى أن الحرب فاتحة ضد عدو جديد هو الحمى الصفراء . وطلب متطوعين ليجرب فيهم عض البعوض ليعلم هل تنقل الحمى به . فتطوع لازار وهو صياد مكروب متدرب ، وتطوع كارول وكان جراحا ساعدا فى الجيش

— ٣ —

واستدعى رجال الحكم ريدَ إلى واشنطن ليؤدى تقريره عن أعمال جرت فى الحرب الأسبانية . فلما جاءته الدعوة أصدر أوامره مفصلةً إلى كارول ولازار وأجَرَمُنْتِى . وكانت أوامر سرية ، وكانت غاية فى التطرف والوحشية إذا أنت قرنتها بطبع ريد المعتدل الهادئ — أوامر إذنابية لا ترضاها الذمم ، وهى إلى جانب هذا خروج على النظام العسكرى ، فما كان لدى ريد إذن من رؤسائه فى الجيش باصدارها . ورحل ريد إلى واشنطن . وقام لازار وكارول يصدعان بأوامره فيركبان خطة غاية فى الجرأة لم يركبها قبلهما من صُيَاد المكروب أحد . أما لازار ، وقد كنتَ بالأمس تقرأ فى عينه معنى الفناء ووَجْمة الموت ، فقد صرت اليوم تقرأ فيها معنى العزم والتلهف على البحث . وأما كارول فقد كان جندياً بطبعه فلم يأبه عمرَه بمجالس التأديب العسكرية ولم يحفل قط بالموت ، وقد كان فى المكروب صياداً طويل الحبل طويل الباع

بدأ لازار خطته . فحمل معه فى زجاجات تلك البعوضات التى فقّسها فخرجت من البيض تحمل على أظهرها أقلاما من فضة وأخذ يسير بها بين سرائر المرضى وقد اصفرّت وجوههم كورق الخريف ، واحمرت أعينهم بالدم القانى ، وهذَوا فى القول وحق عليهم الفناء . وفتح زجاجاته على جلود المرضى ، فأخذت البعوضات تمتص من دمائهم حتى إذا امتلأت سدّ الزجاجات عليها ، وحملها إلى منازل من الزجاج أُعدّت لها ، وأدخل فيها إلى البعوض أطباقا صغيرة من الماء ومن السكر . وفى هذه المنازل هضمت أنثيات البعوض هذه غذاءها من الدم المحموم ، وطنّت قليلا ، ثم سكتت فى انتظار التجربة

وتذكر لازار ما قاله ريدُ له : « يجب ألا تغفل عن حمى الملاريا ، فلعل بينها وبين هذه الحمى الصفراء شبهاً قريبا ، ففى حمى الملاريا لا يكون البعوض خطراً على الناس إلا بعد أسبوعين أو ثلاثة ، فلعل الحال فى هذه مثله فى تلك »

ولكن أين الصبر من لازار ، وأين منه صبر أيام بَلَهَ صبر الأسبوعين أو الثلاثة ! فجاء بسبعة متطوعين لا أدرى كيف جاء بهم ، ولا أدرى ما اسمهم ، لأن أسماءهم على ما أعلم أُسدِل عليها الستار عمداً ، لأن التجربة أُريدَ إجراؤها فى خفاء كالليل البهيم . وقام لازار على هؤلاء السبعة — ولعلّه أسكرهم أو لعلّه خدرهم — فأسقَى البعوضَ من دمائهم ، هذا البعوض الذى استقى منذ أيام قلائل من دم مرضى أصبحوا فى هذه الساعة فى عداد الأموات

وا أسفاه للازار ! فقد جاءت النتيجة بغير ما ارتجى ، فظل السبعة الرجال على أصح حال ولم تأتهم الحمّى . فانكفأ على عقِبَيْه خاسراً نادماً

خسر لازار ، وبقى كارول لم يجرّب بعدُ حظّه . وكارول هو الرجل الذى قضى سنين عونَ ريد الأول ، وكان دخل الجيش أول ما دخل جندياً بسيطاً ، ثم صار أمباشىّ وجاويشَ سنوات عديدة تعلم فيها الطاعة حتى صارت من جبلّته . وكان رئيسه ريد قال : « جربوا البعوض » . وكان رئيسه ريد ارتأى أن الشيخ المأفون فِنْلى لم يقل لغوا عندما اتهم البعوض . فلزم كارولَ أن يقول ما قال ريد وأن يرى ما ارتآه . أما رأيه هو فثانوىّ فى حكم الجيش ومألوفه . ألم يقل لهم البكباشى ريد عند رحيله « جربوا البعوض » !

فجاء كارول إلى لازار وهو فى يأسه يذكّره ، قال : « هأنذا بين يديك متأهب لما تريد » . وسأله أن يُخرج إليه أخطر بعوضة

لديه — بعوضة تكون عضّت لا مريضاً واحداً بل عدة من المرضى ، ومن مرضى فى أسواء حال من حمّاهم . وفى السابع والعشرين من أغسطس أخرج لازار بعوضة حسبها أخطر ما عنده ، فقد كانت شربت من دماء أربعة من مرضى الحمى الصفراء كان من بينهم اثنان فى أسوأ حال . وحطّت هذه البعوضة على ذراع كارول.

ونظر إليها الجندى كارول وهى تتحسس بمقراصها تتخير للقرص مكاناً من جلده . فما الذى دار فى خلده وهو يرقبها تنتفخ كالكرة مما تشرب من دمه ؟ لا أدرى ولا أحد يدرى ، ولكنى أحسبه يداور فى فكره حقيقة يعرفها كل أحد : « أنا الآن فى السادسة والأربعين ، وفى الحمى الصفراء كلما زادت السن قل الرجاء فى الشفاء » . وكان فى سنّه السادسة والأربعين ، وكانت له امرأة وخمسة أولاد ، ومع هذا فقد كتب فى هذا المساء إلى ريد يقول : « إذا كانت نظرية البعوض صائبة وجب أن يكون حظى من الداء وفيراً » . وفعلاً قد كان حظه منه وفيراً

فبعد يومين أحس بالتعب ورغب عن عيادة المرضى فى عنبرهم ، وبعد يومين آخرين أحسّ أنه مريض ، وخال أن عنده حمى الملاريا ، فنهض بنفسه على رجليه وذهب إلى معمله وفحص دمه تحت المجهر فلم يجد به مما خال أثراً . ولما خيّم الليل ضرب فى عينيه الدم ، واحمرّ وجهه واقتمّ ، وفى الصباح حمله لازار إلى عنبر الحمى الصفراء ، وبقى هناك أياماً طويلة وإلى جنبه الموت ... ومرّت به دقيقة أحس فيها كأن قلبه سكت فلم ينبض ... وتلك دقيقة أعقبته سوءاً ستعلمه بعد حين . وظل بعد شفائه بعد تلك الأيام التى قضاها مريضاً بالمستشفى أمجد أيامه . قال : « أنا أول رجل أصابته الحمى الصفراء فى أول تجربة من عضة بعوضة متعمّدة »

وعانى مثلَ حظ كارول جندىٌّ يدعى « س . ص » ، أسماء هذا الاسم هؤلاء البحّاث الذين خرجوا على القانون فتستّروا فى ظلام الكتمان ، وكان اسمه الحقيق وليم دين William Dean ومسكنه جراند رابدز Grand Rapids بمتشجان Michigan [1] . فهذا عضّته أربع بعوضات وكارولُ فى أول مرضه ، إحداها هى التى عضّت كارول ، والثلاث الأخريات عضت ستة رجال فى درجة من المرض معتدلة وأربعةَ رجال كانوا فى أسوأ حالة من الحمى ورجلين ماتا بها . وحَظِى هذا الجندى بالشفاء كما حظى كارول

إذن فالتجارب جاءت بخير ما يُرجَى . نعم لقد عضّ البعوض ثمانية رجال فلم يصبهم سوء ، ولكنه عض كارول وعض « س . ص » ونِعْمَ الخنزيرين الغينيين كانا فى هذا التجريب فأصابتهما الحمى ، وكاد قلب كارول أن يقف ، وتماثل الاثنان للشفاء ؛ وكان كارول منتبطاً يكتب إلى رئيسه ريد وينتظر اليوم الذى يعود فيه ليطلعه على سجل التجارب زاهياً فخورا

ولم يشكّ فى هذه التجارب أحدٌ إلا لازار ، فداخله فى هاتين الاصابتين شىء من الريبة ، لأنه كان مجرّباً متقناً دقيقاً حذِراً فى تجريبه ؛ وكان يرى أنه إذا قام بتجربة وجب عليه أن يتحكّم فى ظروفها ويضبطها غاية الضبط حتى لا يتسرب اليها الخطأ ، شأنَ البحّاثة القح . حدّث لازار نفسه قال : « ليس من الكرم التشكك فى أمر هاتين التجربتين بعد ما أبدى فيهما كارول و « س . ص » من التضحية والجرأة ما أبديا ، ولكن كلا الرجلين تعرض للاصابة قبل التجربة وذهبا حيث توجد الحمى مرة أو مرتين قبل أن يصابا بها فعلا ، فليست التجربة بالغة حدّ الكمال ، فمن يدريني أن بعوضى لا غيره هو الذى أعطاهم الحمى »

تشكك لازار ، ولكن ما تشكّكُ جندى أول واجبه إطاعة الأمر ؟ وإذنْ فقد أخذ يجرى على عادته فيذهب عصر كل يوم إلى أسرّة المرضى فى تلك الحجرات ذات الرائحة الغريبة الضعيفة المعهودة ، وإذنْ فقد استمر يقلب زجاجات اختباره بما فيها من البعوض على أذرع رجال حمر الوجوه محمومين ، ويجعل البعوض يمتص من دمائهم حتى يرتوى . وجاء اليوم الثالث عشر من سبتمبر ، فكان يوماً على لازار مشؤوما ، إذ بينما هو يأذن للبعوض فى الزجاج أن يشرب من دم المرضى ، حطت من الجو على ظاهر كفه بعوضة تائهة ، فتركها تشرب من دمه وقال : « دعها تشرب فما أظنها من البعوض الذى يسىء » ، قال ذلك عن بعوضة تائهة طائرة طليقة فى عنبر به الرجال تموت !

كان هذا فى اليوم الثالث عشر من سبتمبر

(١) بالولايات المتحدة